**المحاضرة رقم 07**

تدرس الأنثروبولوجيا أصول المجتمعات والثقافات الإنسانية وتاريخيا، وتتبع نموها وتطورها، وتدرس بناء الثقافات البشرية وأداؤها لوظائفها في كل مكان وزمان فالأنثروبولوجيا الثقافية تهتم بالثقافة في ذاتيا، سواء كانت ثقافة أسلافنا أبناء العصر الحجري، أو ثقافة أبناء المجتمعات الحضرية المعاصرة في أوروبا وأمريكا. فجميع الثقافات تستأثر باهتمام دارس الأنثروبولوجيا، لأنها تسهم جميعا في الكشف عن استجابات الناس للمشكلات العامة التي تطرحها دوما البيئة المادية، وعن محاولات الناس الحياة والعمل معا، وتفاعلات المجتمعات الإنسانية بعضها مع البعض[[1]](#footnote-1).

1. **مفهوم الأنثروبولوجيا الثقافية**:

هي العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع له ثقافة معينة. وعلى هذا الإنسان أن يمارس سلوكاً يتوافق مع سلوك الأفراد في المجتمع (الجماعة) المحيط به، يتحلّى بقيمه وعاداته ويدين بنظامه ويتحدث بلغة قومه . ولذلك، فإن الأنثروبولوجيا الثقافية :هي ذلك العلم الذي يهتم بدراسة الثقافة الإنسانية، ويعنى بدراسة أساليب حياة الإنسان وسلوكاته النابعة من ثقافته. وهي تدرس الشعوب القديمة، كما تدرس الشعوب المعاصرة[[2]](#footnote-2).

فهي تهدف إلى فهم الظاهرة الثقافية وتحديد عناصرها. كما تهدف إلى دراسة عمليات التغيير الثقافي والتمازج الثقافي، وتحديد الخصائص المتشابهة بين الثقافات، وتفسر بالتالي المراحل التطورية لثقافة معينة في مجتمع معين.

ولهذا استطاع علماء الأنثروبولوجيا الثقافية أن ينجحوا في دراساتهم التي أجروها على حياة الإنسان، سواء ما اعتمد منها على التراث المكتوب للإنسان القديم وتحليل آثارها، أو ما كان منها يتعلّق بالإنسان المعاصر ضمن إطاره الاجتماعي المعاش.

وهذا يدخل – إلى حد بعيد- فيما يسمى (علم اجتماع الثقافة) والذي يعني تحليل طبيعة العلاقة بين الموجود من أنماط الإنتاج الفكري، ومعطيات البنية الاجتماعية، وتحديد وظائف هذا الإنتاج في المجتمعات ذات التركيب التنضيدي أو الطبقي. ويتضمن هذا التعريف الاعتبارات التالية [[3]](#footnote-3):

* إن الحديث عن أنماط الإنتاج الفكري، يعني أن التجانس الثقافي بالمعنيين : الفلسفي والأنثروبولوجي، هو غير عمليات علم الاجتماع. أن هذا التجانس يغطّي وجوداً حقيقياً لأنماط مختلفة من الثقافة، قد تتناقض مضموناً ووظيفة في المجتمع الواحد. فعلى الرغم من وجود بعض العوامل (الأنثروبولوجية) المشتركة، فلا توجد موضوعياً في المجتمعات ذات التركيب الطبقي "" ثقافة للجميع "، حتى وإن ادعت أو أرادت هذه الثقافة لنفسها، أن تكون كذلك. فهناك من وجهة نظر اجتماعية نمطية ثقافية (ربما في ذلك أنماط الثقافة الجماهيرية) يفضي تصنيفها وتحليلها، إلى إبراز التمايز الاجتماعي الذي تعبر عنه بالضرورة. وهذا يعني أن اجتماعية الثقافة في نهاية الأمر، هي اجتماعية التباين في الثقافة وعدم مساواة في المجال الثقافي.
* إن الحديث عن المجتمعات المنضدة (الطبقية) ليس حصراً بقدر ما هو تأكيد على أن الإنتاج الفكري هو تعبير عن مرحلة معينة من التمايز بين الأصناف الاجتماعية الاقتصادية. وأن استعمال مفهوم التركيب التنضيدي، **Stratification** على الرغم من غموضه، يقحم في حقل التحليل الاجتماعي مجتمعات تاريخية قبل رأسمالية، قد يكون مضمونها الطبقي محلّ نقاش. وعلى هذا الأساس، تكون المجتمعات الوحيدة التي تخرج من الحقل الاجتماعي، هي تلك التي تسمى عادة بالمجتمعات (البدائية)، والتي لم تصل فيها أنماط الإنتاج الفكري إلى درجة كافية من التمايز تسمح لها بتصنيف معين.
* ليس المهم من وجهة النظر التحليلية إثبات العلاقة بين الإنتاج الفكري والواقع الاجتماعي، بقدر ما هو تحليل أشكال هذه العلاقة في مرحلة معينة لمجتمع معين. ويعد هذا التحليل مصدراً أساسياً في المناقشات المتعلّقة بالروابط الموجودة بين البنية التحتية والبنية الفوقية، والتي أفضت إلى تأكيد فكرة التبادل الدياليكتيكي القائم بينهما. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن اجتماعية الأدب والفن، ساهمت مساهمة متطورة في تحليل أشكال العلاقة بين الإنتاج الفكري، ومعطيات البنية الاجتماعية .
* إن تحديد الكيفية التي يحول بها إنتاج فكري، كالقص أو المسرح مثلاً، معطيات الواقع، لا يكفي، بل لا بد من إبراز الوظيفة الاجتماعية/السياسية لهذا الإنتاج، ولا سيما أن المنتجين ينتمون إلى فئات من المثقّفين يؤدون أدواراً قد يعونها أو لا يعونها لصالح أصناف أو طبقات اجتماعية معينة. وهذه الوظيفة ليست مظهراً ثانوياً أو تكميلياً، بل هي بعد من أبعاد العلاقة بين الثقافة والمجتمع، ولا يمكن تفسير أي حدث فكري من دونها. وهي في الوقت ذاته، توجد حلا لما يسمى " استقلالية " القيم الفكرية والجمالية، وذلك من خلال اكتشاف وظيفة استمرارية هذه القيم، أو بعثها في ظروف تاريخية محددة.

إن دراسة الوسط الثقافي، تكشف عن الآلية السيكولوجية التي توجه سلوك الفرد، وتصرف النزعة العدوانية في مجالات تنفيس مهذّب. والمثال على ذلك في بعض النظم الاجتماعية، كما في طقوس (**الآبوApo**) التي تمارسها قبائل **الآشانتي** **Ashanti** في ساحل الذهب في أفريقيا الغربية.

ففي احتفالات **الآبو**، لا يسمح فقط، بل يجب، أن يسمع أصحاب السلطة، السخرية واللوم واللعنات من رعاياهم بسبب المظالم التي ارتكبوها. ويعتقد رجال **الآشانتي** أن في هذا ضمانة لكي لا تتعذّب أرواح الحكام بسبب كبت استياء الغاضبين. ولولا ذلك، لأفضى تراكم الاستياء وتعاظم قوته، إلى إضعاف سلطة الحكام، بل وإلى قتلهم. ولا تتطلّب فعالية هذه الآلية (الفرويدية الجوهر)في التنفيس عن الكبت أي إيضاح. فهي تلقي ضوء أكبر على ما تقوم به من أشكال السلوك المنظّمة في نظم اجتماعية، من تصحيح لاختلال التوازن في نمو شخصيات الأفراد الذين تشملهم[[4]](#footnote-4).

1. **نشأة الأنثروبولوجيا الثقافية ومراحل تطورها:**

لم تظهر الأنثروبولوجيا الثقافية كفرع مستقلّ عن الأنثروبولوجيا العامة، إلاّ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وربما يعود الفضل في ذلك إلى العالم الإنكليزي إدوارد تايلور الذي يعد من رواد الأنثروبولوجيا، والذي قدم أول تعريف شامل للثقافة عام **1871**م في كتابه " الثقافة البدائية " .وقد مرت الأنثروبولوجيا الثقافية بمراحل متعددة، منذ ذلك الحين حتى وصلت إلى ما هي عليه في العصر الحاضر[[5]](#footnote-5).

* 1. **مرحلة البداية**

وتمتد من ظهور هذه الأنثروبولوجيا وحتى نهاية القرن التاسع عشر. وكانت عبارة عن محاولات لرسم صورة عامة لتطور الثقافة منذ القدم، والبحث أيضاً عن نشأة المجتمع الإنساني.

وظهر في هذه الفترة إلى جانب العالم الإنكليزي تايلور، العالم الأمريكي بواز الذي أخذ بالاتجاه التاريخي في دراسة الثقافات الإنسانية، وذلك من جانبين ؛ أولهما : إجراء دراسات تفصيلية لثقافات مجموعات صغيرة، كالقبائل والعشائر، ومراحل تطورها. وثانيهما : أجراء مقارنة بين تاريخ التطور الثقافي، عند مجموعة من القبائل، بغية الوصول إلى قوانين عامة أو مبادئ، تحكم نمو الثقافات الإنسانية وتطورها. وهذا ما يعطي أهمية للأنثروبولوجيا باعتبارها علماً له منهجيته الخاصة.

* 1. **المرحلة الثانية:**

وتقع ما بين (**1900** - **1915**م)، وتعد المرحلة التكوينية، حيث تركّزت الجهود في الأبحاث والدراسات، على مجتمعات صغيرة محددة لمعرفة تاريخ ثقافتها ومراحل تطورها، وبالتالي تحديد عناصر هذه الثقافة قبل أن تنقرض

واستناداً إلى ذلك، جرت دراسات عديدة على ثقافة الهنود الحمر في أمريكا، وتوصل الباحث الأمريكي وسلر إلى أسلوب يمكن بوساطته من دراسة أي إقليم أو منطقة في العالم تعيش فيها مجتمعات ذات ثقافات متشابهة، أو ما أصطلح على تسميته بالمنطقة الثقافية. وقد شبه وسلر المنطقة الثقافية بدائرة، تتركّز معظم العناصر الثقافية في مركزها، وتقلّ هذه العناصر كلّما ابتعدت عن المركز.

* 1. **المرحلة الثالثة:**

وتقع ما بين (**1915** - **1930**م) وتعد فترة الازدهار، حيث تميزت بكثرة البحوث والمناقشات في القضايا التي تدخل في صلب علم الأنثربولوجيا الثقافية، ولا سيما تلك الدراسات التي تركّزت في أمريكا .

ويرجع ازدهار الأنثربولوجيا في تلك الفترة، إلى نضج هذا العلم ووضوح مفاهيمه ومناهجه. وترافق ذلك بازدهار المدرسة التاريخية في أمريكا، وظهور المدرسة الانتشارية في إنكلترا، ولا سيما بعد الأخذ بمفهوم المنطقة الثقافية الذي طرحه وسلر كإطار لتحليل المعطيات الثقافية وتفسيرها، والتوصل إلى العناصر المشتركة بين الثقافات المتشابهة.

* 1. **المرحلة الرابعة:**

ومدتها عشر سنوات فقط، وتقع ما بين (**1930** - **1940**م). وعلى الرغم من قصر مدتها، فقد أطلق عليها الفترة التوسعية، حيث تميزت باعتراف الجامعات الأمريكية والأوروبية بالأنثروبولوجيا الثقافية كعلم خاص في إطار الأنثروبولوجية العامة، وخصصت لها فروع ومقررات دراسية في أقسام علم الاجتماع في الجامعات.

وظهرت في هذه الفترة النظرية (التكاملية)التي تبنّاها سابير عالم الاجتماع الأمريكي، واستطاع من خلالها تحديد مجموعة متناسقة من أنماط السلوك الإنساني، والتي يمكن اعتمادها في دراسة السلوك الفردي، لدى أفراد مجتمع معين، حيث أن جوهر الثقافة هو في حقيقة الأمر، ليس إلاّ تفاعل الأفراد في المجتمع بعضهم مع بعض، وما ينجم عن هذا التفاعل من علاقات ومشاعر وطرائق حياتية مشتركة.

وقد تأثّرت الأنثروبولوجيا في هذه الفترة- إلى حد بعيد- بالأنثروبولوجيا الاجتماعية، ولا سيما في مفاهيمها ومناهجها، وذلك بفضل الأبحاث التي قام بها كلّ من مالينوفسكي و**براون** في مجالات الأنثربولوجيا الاجتماعية.

* 1. **المرحلة الخامسة:**

وهي الفترة المعاصرة التي بدأت منذ عام **1940**، وما زالت حتى الوقت الحاضر. وتمتاز هذه المرحلة بتوسع نطاق الدراسات الأنثروبولوجية، خارج أوروبا وأمريكا، وانتشار الأنثروبولوجيا الثقافية في العديد من جامعات الدول النامية، في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينينية.

وترافق ذلك مع ظهور اتّجاهات جديدة في الدراسات الأنثربولوجية، كان الاتّجاه القومي في مقدمة هذه الاتّجاهات الحديثة في الأنثروبولوجيا الثقافية، والذي يهدف إلى تحديد الخصائص الرئيسة للثقافة القومية. وقد أخذت بهذا الاتّجاه الباحثة الأمريكية روث بيندكيت التي قامت بدراسة الثقافة اليابانية خلال الحرب العالمية الثانية.

ويسمى الاتجاه القومي في تقييم الثقافة: "الانطوائية القومية " والتي تعني: أن الانسان يفضل طريقة قومه في الحياة، على طرائق الأقوام الأخرى جميعها. تلك هي النتيجة المنطقية لعملية التثقيف الأولى، والتي يتّفق بها شعور معظم الأفراد نحو ثقافتهم الخاصة، سواء أفصحوا عن هذا الشعور أو لم يفصحوا.

وتتجلّى الانطوائية القومية لدى الشعوب البدائية بأحسن أشكالها ، في الأساطير والقصص الشعبية، والأمثلة والعادات اللغوية .. فأسطورة أصل العروق البشرية لدى هنود (الشيروكي)تعطينا مثالاً حياً عن الانطوائية القومية. تقول الأسطورة:

"صور الخالق الإنسان بأن صنع أولاً فرناً وأوقد النار فيه، ثم صنع من عجينة ثلاثة تماثيل على شكل الإنسان، ووضعها في الفرن وانتظر شيها )شواءها). غير أن لهفة الخالق إلى رؤية نتيجة عمله الذي يتوج تجربته في الخلق، كانت من الشدة بحيث أخرج التمثال الأول مبكراً، فكان – وللأسف- غير ناضج شاحباً باهت اللون، ومن نسله كان العرق الأبيض. أما التمثال الثاني، فكان ناضجاً جيداً لأن مدته في الشواء كانت مضبوطة وكافية، فأعجبه شكله الأسمر الجميل، وكان هذا سلف الهنود. وانصرف الخالق إلى تأمل صورته، ناسياً أن يسحب التمثال الثالث من الفرن حتى اشتم رائحة الاحتراق. فتح باب الفرن فجأة، فوجد هذا التمثال متفحماً أسود اللون .. فكان ذلك مدعاة للأسف، ولكن لم يعد بالإمكان حيلة، وكان هذا أول رجل أسود"[[6]](#footnote-6).

بهذه الصورة تبدو الانطوائية القومية لدى الكثير من الشعوب .. حيث يصر الإنسان الفرد على التعبير عن صفات قومه الحميدة .. ولهذا يحكم أي إنسان على النظام القيمي الاجتماعي لدى أي شعب آخر، من خلال العلاقة التي تربط هذا الشعب بشعبه، وفق درجة الرغبة والقبول في ذلك، والتي قد تصل إلى حدود الرفض المطلق أو القبول المطلق، وفقاً لمعايير عامة.

وكانت من أهم الاتجاهات الحديثة أيضاً في الأنثروبولوجيا الثقافية، تلك الدراسات التي عنيت بالمجتمعات المتمدنة، وما أطلق عليها " دراسة الحالة ". كدراسة أوضاع قرية أو عدد من القرى المتجاورة، أو في منطقة معينة، أو دراسة ثقافة خاصة بمجموعة أو بفئة من البشر. إضافة إلى دراسات أكاديمية تتعلّق بخصائص الأنثروبولوجيا الثقافية ومبادئها، ومناهج البحث فيها وطرائقها وأساليبها .. وغيرها مما يسهم في إجراء الدراسات على أسس موضوعية وعلمية تحقّق الأهداف المرجوة منها.

1. - محمد الجوهري ، شکري علياء**، مقدمة في دراسة الأنثروبولوجيا**، دار المعرفة القاهرة .2007، ص 38، 39. [↑](#footnote-ref-1)
2. - بيلز رالف وهويجرا هاري، **مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة**، ترجمة : محمد الجوهري وآخرون، دار النهضة، القاهرة، 1977. ، ص 21. [↑](#footnote-ref-2)
3. - لبيب الطاهر، **سوسيولوجية الثقافة**، دار الحوار، اللاذقية، 1987.، ص 24- 26. [↑](#footnote-ref-3)
4. - هرسكوفيتز مليفيل، **أسس الأنثروبولوجيا الثقافية**، وزارة الثقافة، دمشق، 1974.، ص 59. [↑](#footnote-ref-4)
5. - Barnouw, V Cultural Anthropology , Home wood Illinois. Irwen Inc 1972, p07. [↑](#footnote-ref-5)
6. - هرسكوفيتز مليفيل، **مرجع** **سابق**، ص 72. [↑](#footnote-ref-6)